

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

حكماء من المشرق

الأب متى المسكين

كتاب: حكماء من المشرق
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٢ م
الطبعة الثانية: ٢٠٠٤ م
الطبعة الثالثة: ٢٠٠٥ م
مطبعة دير القديس أنبا مقار — وادي النطرون
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٢ / ١٩٠٤
رقم الإيداع الدولي: 977-240-105-3
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

يُطلب من:
دار مجلة مرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا — تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرير — محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

حكماء من المشرق

البشرية تقدّم عبادتها وخضوعها لله المتجسّد عمانوئيل

(مت ١: ٢-١٢)



بقدر ما اختصّ الأصحاح الأول في إنجيل القديس متى بتأكيد مسيانية يسوع المولود "لميراث مملكة أبينا داود" على مستوى اليهود، بقدر ما اختصّ الأصحاح الثاني بالإعلان عن ملوكية يسوع المسيح على مستوى العالم. ولكن إن كان تأكيد مسيانية يسوع المولود هو عمل يتم على طول الزمن، نجد أن إعلان ملوكية يسوع المولود يتم بالفعل في المنظور على مستوى العالم وعلى أيدي حكمائه. ولكن هناك أعداء يتربّصون بالعبادة وبالمَلِك.

٢١: ٢ «وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمٍ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودَسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ».

من عادة القديس متى أن يترك تحقيق بعض النقاط الحسّاسة ويكتفي بأن يمر عليها فيكون هذا هو التحقيق عنده. فهو يذكر هنا أمرين كبيرين في شأن ميلاد المسيح: الأول: تعيين بيت لحم، والثاني:

إن ميلاد المسيح تمَّ في زمن حكم هيرودس الكبير؛ فيذكرهما لمأماً دون التوقف أو التعليق. هنا يتبادر السؤال بإلحاح، ذلك على ضوء ما جاء عند القديس لوقا: ما الذي أتى بالعدراء ويوسف إلى بيت لحم؟ والسؤال الثاني: متى عاش ومتى مات هيرودس؟

وهنا يتدخل العلماء بحذق ومهارة لتعيين زمان ميلاد الرب يسوع المسيح قبل وفاة هيرودس بقليل من الزمن، إذ تحدّد تاريخياً أن هيرودس مات بعد خسوف القمر الذي حدث قبل زمن ميلاد الرب يسوع بقليل، والذي رُصد أنه كان قبل نهاية شهر مارس أو في بكور أبريل سنة ٤ ق.م، فيكون الميلاد سنة ٤ ق.م أو ربما سنة ٥ ق.م^(١).

والرواية تقول إنه بعد ولادة يسوع المسيح في بيت لحم بقليل، جاء هؤلاء الحكماء - المكيني عنهم في الإنجيل بالمجوس - إلى أُورشليم عاصمة اليهود يسألون عن ملك اليهود! ويتساءل العلماء: هل جاءوا من بلاد مادي وفارس أو من بابل؟ كلمة: "مجوس" هي كلمة إيرانية الأصل، وقد رصدها العلماء في كتابات هيرودوت كإشارة إلى إحدى قبائل بلاد مادي، وكانوا دارسي فلك، ومولعين برصد حركات النجوم وعلاقتها بأحداث الأرض وتأثيرها. وفي نفس الوقت كانوا على درجة عالية من التعلُّد، ويؤمنون بالله الواحد، ويمارسون الخير والصلاح، ويعفون عن الشر، ويؤمنون بالصلاة، ويعملون في الزراعة^(٢). ويلتقط العلماء سماتهم الوطنية من ملابسهم التي صوَّروهم

W. Hendriksen, *Bible Survey*, pp. 59-62. (١)

Ibid., *Exposition of the Gospel according to Matthew*, p. 150. (٢)

بها التقليد القديم، فهم فارسيون. ويتفق الآباء: كليمنديس الإسكندري، وديودورس من طرسوس، ويوحنا ذهبي الفم، وكيرلس الإسكندري، في أن الجوس هم حكماء من فارس. ويعتقد البعض أنه منذ سبي اليهود في القرن السادس قبل الميلاد وتبعثرهم في بابل وما وراءها، استوطن بعضهم بلاد مادي وفارس، وكان لهم تأثير في ترقب المسيا الملك القادم لليهود، خاصة وأن عبادة فارس كانت توحيدية بالله الواحد مثل اليهود^(٣).

أمّا عددهم فقد قُدِّر بقدر هداياهم الثلاث ذهباً ولباناً ومراً (١١:٢). والحكي في أمرهم كثير وفي أسمائهم ووظائفهم كملوك، وأسمائهم (ملخيور وبلتاصار وكاسبار)، وأن واحداً من الهند وآخر من مصر والثالث من اليونان. هذه كلها أنواع من حبك القصص للتدليل على عالمية هذه البعثة السلامية الملكية. ويزيد البعض كيف أنهم اعتمدوا على يد القديس توما، وعظماهم احتفظت بها الملكة هيلانة وأودعتها كنيسة أجيا صوفيا بالقسطنطينية، ثم نُقلت إلى ميلان بإيطاليا، وأخيراً استقرت في كاتدرائية كولونيا.

«أين هو المولود ملك اليهود»؟

وبقدر ما أثار ظهور الجوس في أورشليم من حركة واستطلاع، وبقدر إصرارهم على أن لليهود ملكاً قد وُلِد؛ اشتعلت نار الغيرة في القصر الملكي، لأن هيرودس هو أدومي المولد، فميلاد ملك لليهود يعني تحدّ لملوكيته الدخيلة على اليهود. هنا استفسار الجوس عن مكان

Ibid., p. 151. (٣)

ولادة الملك كان مطلباً هاماً تجشّسوا من أجله أتعاب رحلة ربما استغرقت منهم شهوراً. وقد تحقّقوا من صدق دعواهم، إذ رأوا وتأكّدوا من نجمة الدّال عليه، وأصبح من صميم حياتهم أن يقدّموا العبادة له، لا بصفته ملك اليهود فحسب، بل ملك الأمم وملك العالم الذي يعيشون فيه، فهو قطب عبادة وليس قطب حكومة. له عليهم حق الألوهة، وعليهم له حق السجود.

ولكن ما هذا النجم وكيف يُعزّونه للملك أمة أجنبية عنهم؟ أمّا النجم فهو نجم أو مجموعة كواكب، وضوؤه ذو لمعان فريد بين نجوم السماء كلها، فهو لا يشابهها. ومعروف ضمناً أن كوكب جوبيتر (برجيس = المشتري)، وهو اسم إله عند الرومان يرافق ميلاد الملوك، فإذا اجتمع جوبيتر مع ساتورن (زُحل) في برج السمكة ظهر شبه مذنب له ذيل شديد اللّمعان يقترب من الأرض، وهو يشير إلى تحقيق رجاء عالمي، ويمكن رؤيته بالعين المجردة. ولكن المدهش أنه يمكن رصده بالقلب، إذ يوجد علاقة بينه وبين قلب الإنسان، هكذا يدّعي المنجمون. لذلك يمكن تحرك النجم مع تحرك الإنسان بالإحساس، ويؤكد أصحاب هذا العلم أنه لا يضلل الإنسان العالم.

ولكن لم يصرّح هؤلاء العرّافون بالنجم، ما هو موضوعه الذي رصده، أكثر من أنهم أدركوا صلته بميلاد ملك لليهود تمتد ملوكيته لتطالهم. وقولهم: رأينا نجمة في المشرق، يعني أنهم رصدوا شروقه.

والإنسان يستطيع أن يقول في ذلك شيئاً واحداً، إن الله نفسه ألهمهم هذه المعرفة التي صارت عندهم مؤكّدة (ويقول بهذا ذهبي

الفم) (٤) لدرجة العبادة ليكونوا شهوداً ضد اليهود.

وهناك كذلك الشاهد الغريب العجيب الذي يُدعى بلعام بن بعور الذي تنبأ عن هذا النجم وتكلّم عن صاحبه منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة ق.م، وكان كلامه هو نطق من الله، قاله بلعام وهو لا يدري ما يقوله. ويقول الكتاب إن بلعام من بين النهرين من أرام بلد إبراهيم من جبل المشرق، ويبدو أنه أيضاً من العرّافين بالفلك والنجوم، وقد قابله ملاك الله وكلمه قائلاً: «وإنما تتكلّم بالكلام الذي أكلّمك به فقط» (عد ٣٥: ٢٢)، فوضع الرب كلاماً في فم بلعام (عد ٣٨: ٢٢)، فلما راوده بالاق ملك أرام لكي يلعن إسرائيل ردّ عليه: «من أرام أتى بي بالاق ملك موآب من جبال المشرق. تعالَ العنّ لي يعقوب، وهلمّ اشتم إسرائيل. كيف ألعن مَنْ لم يلعنه الله؟ وكيف أشتم مَنْ لم يشتمه الرب؟ ... لَتَمُتْ نفسي موت الأبرار، ولتكن آخرتي كآخرتهم» (عد ٢٣: ٧-١٠)، «فأجاب وقال: أمّا الذي يضعه الرب في فمي أحترص أن أتكلّم به» (عد ١٢: ٢٣)، «ولو أعطاني بالاق ملء بيته فضة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيراً أو شراً من نفسي. الذي يتكلّمه الرب إياه أتكلّم.» (عد ١٣: ٢٤)

ثم أخذ بلعام، وهو في حالة شبه غيبوبة، ينطق بأهم نبوءة قيلت عن المسيح وعن نجمه من فم أممي هكذا:
+ «وحي بلعام بن بعور، وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي

يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلي، الذي يرى رؤيا القدير
ساقطاً وهو مكشوف العينين: أراه ولكن ليس الآن، أبصره ولكن
ليس قريباً. يبرز (يُشرق) كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب
(ملك) من إسرائيل، فيحطم طرفي موآب (عدوة إسرائيل) ويهلك
كل بني الوغى.» (عد ٢٤: ١٥-١٧)

إذن، فما رآه المحوس، وهم غالباً "بلديات" بلعام وزملاء مهنة
ورؤيا وعلم فلك ومعرفة القدير، هو تحقيق لما رآه بلعام منذ ١٤٠٠
سنة ق.م!! وواضح أن الله هو العامل في هذا وفي هؤلاء!

والآية الفريدة التي جذبت أنظار القديس متى هي بلا نزاع:
«وأتينا لنسجد له»!

٣:٢ «فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ».

كانت العلاقات بين هيرودس واليهود ليست حسنة، وكانت له
عيون وآذان تتسمع أخبار الشعب وميوله المعادية. وأخيراً، وصلت له
أخبار هؤلاء الحكماء وموضوع ميلاد ملك لليهود، له في السماء نجم
لامع يكشف عن أهميته بل وخطورته على ملكه. هذا كان مصدر
اضطراب الملك، ولا نعلم لماذا اضطربت أورشليم أيضاً؟ ومع
اضطراب الملك بدأت الفكرة في القضاء على المولود، فالملوك لا
يهادنون. وربما أحس ولاية أورشليم ورؤساء الكهنة بغضب الملك
فاستعدوا للنقمة.

«هيرودس الملك»:

كان أنطيوخس الرابع إبيفانس قد طوّق أُورشليم وقتل منها الألوّف وباع عشرات الألوّف سنة ١٦٨ ق.م، وصمّم على القضاء على عبادة اليهود من الأساس، وأغاظهم حتى الموت إذ قدّم الخنازير ذبائح على مذبحهم بدل المحرقات المقدّسة داخل الهيكل، والتي قال عنها دانيال وأسمائها: «رجسة الخراب»، وحطّم مقدّساتهم، وأحرق ومزّق كتبهم ومخطوطاتهم. ولم ينقذ البلاد من نقمته إلاّ كاهن بسيط بدأ حركة الثورة عندما ذبح مقدّم الخنازير مع خنازيره. وقاد الثورة يهوذا المكابي ابنه من بعده واستطاع أن يطهّر الهيكل ويعيد إليه صلواته وذبائحه وطقوسه، وتعيّن ذلك عيداً جديداً لليهود وأسموه: عيد «حانوكاه» أي عيد التجديد، وهو مذكور في إنجيل القديس يوحنا (١٠: ٢٢). وظلّت الثورة المكابية مشتتة حتى تدخلت روما سنة ٤٠ ق.م وعيّنت هيرودس الكبير - وهو من أصل أدومي مع نسب يهودي، أبوه أدومي وأمه ناباطية - ملكاً على البلاد بالسيف رغماً عن اليهود. وُلد هيرودس سنة ٧٤ ق.م، ومات سنة ٤ ق.م، وكان مكرماً ومعزّزاً عند الرومان. وكان معمارياً محنّكاً، بنى المسارح والملاعب، وبنى قصرًا كبيراً في الغرب من أُورشليم بأبراجه الثلاثة العالية ذات الأسماء: (هبيكس Hippicus، فازائيل Phasael، ومريمين Mariamne). وقد حاول اليهود اغتياله، ولكن فشلت المؤامرة، فنكّل بهم. ومن أفضاله على اليهود، إعادة بناء الهيكل وتجميله وهو المدعو بـ «الهيكل الثاني» أو «هيكل زربابل» الذي كان قد بُدئ ببنائه سابقاً سنة ٥١٩ ق.م، وقد بدأ هيرودس إعادة بنائه سنة ١٩ ق.م، وظلّ

البناء بعد وفاته بمدة طويلة. هذا هو هيرودس الكبير، وتاريخه يكشف لماذا اضطرب لسماع الحكماء القائلين: أين المولود ملك اليهود؟ وفي الحال استخدم هيرودس خططه للقتل الجماعي، ولكن محتفياً في: «لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له.» (٨:٢)

٦-٤:٢ «فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكُتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟ فَقَالُوا لَهُ: فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ. لِأَنَّهُ هَكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُودَا لَسْتَ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُودَا، لِأَنَّ مِنْكَ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ.»

والإنسان يتعجب من معرفة رؤساء الكهنة والكتبة بأن المسيح يولد في بيت لحم بتأكيد قول النبي في القديم. وقد وُلد المسيح وهم لا يدرون. وليس ميخا النبي وحده (مي ٥:٢) هو الذي عَيَّن أين يولد المسيح؛ بل في (١ صم ١٦: ٤-١٣) لَمَّا عَيَّن الرب داود "مسيح الرب" في بيت لحم، دعا صموئيل وقال له: اذهب وامسحه، «ففعل صموئيل كما تكلم الرب وجاء إلى بيت لحم (وكانت قرية صغيرة للغاية)، فارتعد شيوخ المدينة عند استقباله وقالوا أسلام مجيئك؟ فقال سلام ... وقدس يسى وبنيه ودعاهم إلى الذبيحة. وكان لَمَّا جاءوا أنه رأى (الابن البكر) أليآب، فقال (صموئيل بسؤال): إِنَّ أَمَامَ الرب مسيحه؟ فقال الرب لصموئيل: لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأنني قد رفضته ... الإنسان ينظر إلى العينين، وأَمَّا الرب فإنه ينظر إلى القلب ... وعبر يسى بنيه السبعة أمام صموئيل، فقال صموئيل ليسى:

الربُّ لم يَخْتَرْ هؤلاء. وقال صموئيل ليسَى: هل كملوا الغلمان؟ فقال: بَقِيَ بعد الصغير، وهوذا يرعى الغنم ... أرسل وأتِ به ... فقال الرب: قُمْ امسحه، لأن هذا هو ... وحلَّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً. ومِعروف أن داود كان النموذج للمسيَّا في كل شيء، سواء في ميلاده في بيت لحم، أو «حسب قلب الله» (١ صم ١٣: ١٤)، أو أنه مَسيح الرب (١ صم ١٦: ١٣)، (مز ٢: ٢)، (إش ١: ٦١). وما قيل لداود من جميع الأسباط هو الذي تحقَّق بالفعل في الرب يسوع:

+ «وجاء جميع أسباط إسرائيل إلى داود إلى حبرون وتكلَّموا قائلين: هوذا عظمتك ولحمك نحن. ومنذ أمس وما قبله حين كان شاول ملكاً علينا قد كنت أنت تُخرج وتُدخل إسرائيل، وقد قال لك الرب: أنت ترعى شعبي إسرائيل، وأنت تكون رئيساً على إسرائيل ... ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل.» (٢ صم ٥: ١-٣)

وقد اقتبس رؤساء الكهنة والكتبة آية (٢ صم ٥: ٢): «يرعى شعبي إسرائيل»، وأضافوها على آية ميخا النبي (٢: ٥): «أمَّا أنتِ يا بيت لحم أفراتة وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنكِ يخرج مدبِّر (مي ٢: ٥) يرعى شعبي إسرائيل (٢ صم ٥: ٢)». إلى هذا الحد كان الوعي بالنبوءات التي تخص المَسيَّا في فم رؤساء الكهنة والكتبة، بمعنى أن لا هيرودس ولا رؤساء الكهنة والكتبة شكُّوا في قول النبوءات التي ذكرناها أنها تخص المسيح شخصياً! فكيف انعمت عيونهم وانسدَّت

قلوبهم لَمَّا جاء ولم يعرفوه؟

٧:٢ «حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ».

هذا الاجتماع السري وما نوقش فيه بخصوص زمان ظهور النجم أي "زمان ميلاد ملك اليهود"، يكشف النية السوداء التي أكملها هيرودس في أطفال بيت لحم. ولينتبه القارئ لسوء نية الملك فهو لم يسأل: متى وُلد هذا الملك الذي جئتم لعبادته؟ بل مجرد سؤال عن ظهور النجم، وأخفى مراده عنهم حتى يقتله. والآن إذ عرف مكان ولادته وزمانها، أصبح قادراً أن يحصر عمر الصبي. ولكن كانت عين السماء مفتوحة سهرانة على الابن الوحيد المحبوب: «قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرح عناً ربطهما. الساكن في السموات يضحك، الرب يستهزئ بهم ... أمّا أنا فقد مسحتُ ملكي على صهيون جبل قدسي» (مز ٢: ٦-٢). وفي الحال تشكّلت لجنة من بين الملائكة لتسرّب الطفل إلى مصر والسهر عليه هناك.

٨:٢ «ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ: اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضاً وَأَسْجُدَ لَهُ».

وهكذا ظن الملك القاتل أنه استطاع أن يجنّد الحكماء ليعملوا على تسهيل مهمة اغتيال هذا الملك الغريم. ولكن كان الحكماء أوعى،

وكانت مسيرتهم تحت قيادة سماوية، وثُمَّ فيها ما ثَمَّ في بلعام زميلهم العتيق: «فنطق بمثله وقال: من آرام أتى بي بالاق ملك موآب من جبال المشرق تَعَالَ العن لي يعقوب وهلم اشتم إسرائيل. كيف أَلْعَن مَنْ لم يلعنه الله وكيف أشتم مَنْ لم يشتمه الرب...» (عد ٢٣: ٧ و٨). ولكن هنا أتى بهم هيرودس ليدبروا مقتلاً لِمَنْ جاءوا ليقدموا له عبادة وسجوداً!

٩:٢ «فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقَ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ».

واضح أن النجم المعهود لا يُرى إلا بالليل، فلَمَّا أسدل الليل ستار الظلمة ظهر النجم لهم. وكما قلنا إنهم ساروا بالتوجيه يستلهمون من النجم المسار بنوع الإيحاء الفائق للطبيعة حتى أحسُّوا أنهم بلغوا القصد، فتوقفوا حيث كان الصبي مع أمه. هكذا يرى مثل ما نرى العالم ريدربوس^(٥) وكذلك العالم لنسكي^(٦). ويبدو لنا أن حركة المجوس كان يتحكم فيها التوجيه الإلهي على رؤية سماوية منظورة.

١١:٢ «فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرَحُوا فَرَحاً عَظِيماً جِدًّا. وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَباً وَلُبَّاناً وَمُرّاً».

(٥) Herman Ridderbos cited by W. Hendriksen, *op. cit.*, p. 169.

(٦) R.C.H. Lenski, *Interpretation of St. Matthew's Gospel*, 1932, *ad loc.*

يبدو أنه كان قد غاب عنهم النجم مدة رحلتهم في أورشليم، فلَمَّا جاء الليل ورأوه فرحوا فرحاً عظيماً جداً، لأنهم شعروا بنجاح رحلتهم وصدق رؤيتهم وعلمهم وحساباتهم. فأدركوا عناية الله لهم واطمأنوا إلى مَنْ سيعبدونه! وهكذا بمجرد أن رأوا الصبي في حجر أمه خرجوا إلى الأرض وسجدوا سجود العبادة والشكر على نجاح مقصدهم الإلهي. وهنا برز هذا المنظر المثير يملأ خيال الرسّامين والفنانين ليأخذوا لهؤلاء المجوس مئات الأوضاع التعبيرية، مع الاندهاش والفرح الذي جعلوه يملأ وجوههم لينطبع على كل قلب وعين وروح، كل مَنْ يتأمل فنونهم بلا حصر رسماً وتمثيلاً. وهكذا صارت وقفة الحكماء الثلاثة هي التعبير الفنّي الجيد لمفهوم ميلاد بيت لحم. فعن القديس متى رسم الفنانون المجوس على فم المغارة، وعن القديس لوقا رسم الفنانون الطفل مضجعاً في المذود، وحمار يُسرّ في أذنه بمدى ما يتحمّله من العناء والأتعاب هو وبقية زملائه ويطلب سرعة نجاتهم. أو يرسمون الطفل في حجر أمه والرعاة مجتمعين حوله يؤدّون الخضوع والتحية والشكر للذي أتى ليريحهم من عناء السهر على ذبائح الهيكل، إذ سيختم على عصرهم بذبيحة نفسه!

ويلاحظ القارئ أنه أينما ذُكر الطفل مع أمه، يُذكر الطفل أولاً: «الصبي مع أمه»، فقد وُلد ليكون أولاً!

وبعد أن سجدوا وقَدّموا العبادة التي طالما حلموا بها وترجّوها وتحملّوا مشقة السفر شهوراً - ربما ألف ميل كما يقول هندر كسن (صفحة ١٧٤) - ليفوزوا بها، ارتاحت قلوبهم وبدأوا يقدّمون هداياهم:

أما الذهب فهو تعبير عن ملوكية وُلد لها، وأما اللبان فهو البخور الذي يليق به ككاهن أعظم، وأما المرُّ فهو نبوة عن آلامه المزمعة أن تكون والتي بها يتوج ملكاً على كل الأرض.

وهنا لا نغفل نبوة إشعياء النبي والكلام لأورشليم: «تُعْطِيكَ كثرة الجِمال (قوافل آتية من بعيد)، بُكَرَانُ(٧) مديان وعيفة، كلها تأتي من شبا تحمل ذهباً ولباناً وتبشّر بتسايح الرب» (إش ٦٠: ٦). كما لا نغفل قول المزمور ٧٢ الذي يُقرأ في ليلة عيد الميلاد: «ملوك ترشيش والجزائر يُرسلون تقدمةً. ملوك شبا وسبأ يقدمون هدية. ويسجد له كل الملوك. كل الأمم تتعبد له ... ويعيش ويُعطيه من ذهب شبا.» (مز ٧٢: ١٠-١٥)

١٢: ٢ «ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلُمٍ أَنَّ لَا يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَثِهِمْ».

هنا يظهر العامل الأساسي الذي كانوا يتحركون وفق مشورته، فقد جاءوا بحسب ما أُوحى إليهم وعادوا بحسب ما أُوحى إليهم، وكانت رحلتهم بتدبير متقن كمندوبين فوق العادة ليحيوا مسيياً ويعبدوه، العتيد أن يكون نوراً لهم ولكل الأمم. فإن كانت ملكة التيمن قد جاءت من أطراف الأرض لتسمع حكمة سليمان، فها هم حكماء المشرق جاءوا ليراها من هو أعظم من سليمان. فكانت زيارتهم للمولود ملك اليهود دينونة لليهود الذين وُلد لهم ملكاً فما

(٧) بكران جمع بكر وهو الفتى من الإبل أو الهجن السريعة التي اشتهرت بها مديان.

كرّموه ولا رضوا به أن يملك عليهم.

أمّا استخدام السماء للأحلام لتوصيل الرسالة من فوق، فهو استخدام حالة اللاوعي لكي يصبّ فيه الله ما يراه بالنسبة لمنفعة الإنسان، حينما يصعب الاتصال بالرؤيا في الوعي أو الإيحاء للعقل. والأحلام استُخدمت في إنجيل القديس متى كوسيلة صالحة. فيوسف وقع تحتها ثلاث مرات، وها هم الحكماء تلقوا الإنذار في حلم حفاظاً على حياة الصبي دون أن يدركوا ذلك.